

الحنين للوطن

د. محمد ربيع

وصلت مدينة هايدلبيرج الألمانية ذات يوم مع غروب الشمس قادما من مدينة بون بالقطار. استغرقت الرحلة حوالي ثلاثة ساعات، مررنا خلالها على طول نهر الراين، مستمتعين بما يحيط به من كروم عنب منسقة ومنمقة توشي بأنها لوحات فنية من صنع عبقري عاش العمر في عشق مع طبيعة ساحرة. كما شاهدنا ما يقف على جانبي النهر من قلاع قديمة تؤرخ لما عاشته تلك البلاد من تشتت إلى دويلات صغيرة متنافسة لم يكن بالإمكان تحقيق نهضة ألمانية دون توحيدها في دولة واحدة. ومع تتابع المناظر والمشاعر، كان لا بد من التفكير في الواقع العربي وما تعيشه أوطاننا من إهمال بيئي وتشتت سياسي يصل حد القطيعة في العديد من الأحيان، وما تعانيه الشعوب العربية بسبب ذلك الانقسام من تخلف علمي وثقافي وفساد سياسي واقتصادي واستبداد وتبعية للغير.

تقع مدينة هايدلبيرج على نهر النيكر في وسط الغابة السوداء ذات الأشجار الكثيفة دائمة الاخضرار، وهي غابة تكثر فيها البحيرات الصغيرة والقرى القديمة المتناثرة كلالئ تغازل البحيرات وتزين الجبال.. جمال خلاب وجذاب يشهد على عظمة الطبيعة، يخطف النظر من الزائر ويسرق العقل من المتأمل، ويذهب به بعيدا إلى حيث يعيش الخيال في حالة تعبد خلف الشجر وتحت سطح الماء وفوق أعالي الجبال وبين النجوم.

تعتبر مدينة هايدلبيرج من أقدم وأعرق المدن الألمانية رغم صغر حجمها وضآلة عدد سكانها نسبيا، إذ يبلغ عدد سكان تلك المدينة حوالي 140 ألف نسمة تقريبا. ومن أشهر معالم هذه المدينة الجميلة الوديعه، جامعة هايدلبيرج التي أسست في عام 1386، إبان عصور الظلام الأوروبية لتكون أول جامعة ألمانية ومنارة من منارات العلم التي وصل إشعاعها كل جزء من العالم. ويبلغ عدد طلاب هذه الجامعة حوالي 30 ألف طالب، أي ما يزيد على خمس عدد سكان المدينة. وبسبب ما لهذه الجامعة من شهرة علمية، فإن طلاب العلم من دارسين وباحثين يأتونها من كل مكان، ينهلون مما لديها من معارف، ويشاركون في إثراء حياتها الأكاديمية ومحيطها الحيوي. إن عراقه جامعة هايدلبيرج وشهرتها وعدد طلابها جعل المدينة تغدو بحق واحدة من أهم المدن الجامعية في العالم.. جامعة تجمع الشباب والشيوخ، تتلاقح على أرضها الثقافات، وتلتقي في حرمها الحضارات، ويتعايش في كنفها القديم والحديث من الأفكار والنظريات والفلسفات.

وتحتوي مكتبة الجامعة على حوالي 2.5 مليون كتاب ومخطوطة، من بينها العديد من المخطوطات العربية والإسلامية الموعلة في القدم. وهذا جعل تلك المجموعة من المخطوطات تغدو مع الأيام نواة لواحد من أهم مراكز الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا.